من روائع تراثنا القديم

المحبة الالهية

لحجة الإسلام الإمام الغزالى

اعلم أن اللذات تابعة للإدراكات ، والإنسان جامع لجملة من القوى والغرائز . ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها فى نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له ، فإن هذه الغرائز ما ركبت فى الإنسان عبثا ، بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع . فغريزة الغضب خلقت للتشفى والانتقام ؛ فلا جرم لذتها فى الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها . وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام ، فلا جرم لذتها فى نيـــل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها . وكذلك لذة السمع والبصر والشم فى الإبصار والاستماع والشم . فلا تخلو غريزة من هذه الغرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدركاتها فكذلك فى القلب غريزة تسمى النـــور الإلهى لقوله تعالى « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » وقد تسمى البصيرة الباطنة ، وقد تسمى الإيمان واليقين !

ولا معنى للاشتغال بالأسامى ، فإن الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع فى المعانى ، لأن الضعيف يطلب المعانى من الألفاظ وهو عكس الواجب ، فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعانى التى ليست متخيلة ولا محسوسة كادراكه خلق العالم أو افتقاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات آلهية . ولتسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ، ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة ، فقد اشتهر اسم العقل بهذا ، ولهذا ذمه بعض الصوفية ، وإلا فالصفة التى فارق الإنسان بها البهائم ، وبها يدرك معرفة الله تعالى ، أعز الصفات فلا ينبغى أن تذم . وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق

الأمور كلها ، فمقتضى طبعها المعرفة والعلم وهى لذتها ، كما أن مقتضى سائر الغرائز هو لذتها !

وليس يخفى أن فى العلم والمعرفة لذة ، حتى إن الإنسان لا يكاد يصبر عن التحدى بالعلم والتمدح به فى الأشياء الحقيرة ، فالعلم باللعب بالشطرنج على خسته لا يطيق السكوت فيه عن التعليم ، وينطلق لسانه بذكر ما يعلمه . وكل ذلك لفرط لذة العلم وما يستشعره من كمال ذاته به ، فإن العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ، ولذلك يرتاح الطبع إذا أثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم ، لأنه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته ، وكمال علمه ، فيعجب بنفسه ويلتذ به !

ثم ليست لذة العلم بالحراثة والخياطة ، كلذة العلم بسياسة الملك وتدبير أمر الخلق ، ولا لذة العلم بالنحو والشعر ، كلذة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملكوت السموات والأرض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم . حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك يجد له لذة ، وإن جهله تقاضاه طبعه أن يفحص عنه ، فإن علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تدبيره فى رياسته ، كان ذلك ألذ عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك ، فإن اطلع على أسرار الوزير وتدبيره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة ، فهو أشهى عنده وألذ من علمه بأسرار الرئيس ، فإن كان خبيرا بباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير ، كان ذلك أطيب عنده وألذ من علمه بباطن أسرار الوزير ، وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنده أشد ، وحبه له أكثر ، لأن لذته فيه أعظم !

فبهذا استبان أن ألذ المعارف أشرفها ، وشرفها بحسب شرف المعلوم فإن كان فى المعلومات ما هو أجل وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزينها ومبدئها ومعيدها ومدبرها ومرتبها ؟ وهل يتصور أن يكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال وأعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط بمبادىء جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين ؟ فإن كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاضطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات ، هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها . وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها

وجمالها ، وأجدر ما يعظم به الفرح والارتياح والاستبشار .

وبهذا تبين أن العلم لذيذ وأن ألذ العلوم ، العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتدبيره فى مملكته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين . فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات ، أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس ، فإن اللذات مختلفة بالنوع أولا ، كمخالفة لذة الوقاع للذة السماع ولذة المعرفة للذة الرياسة ، وهى مختلفة بالضعف والقوة كمخالفة لذة الشبق المغتلم من الجماع للذة الفاتر الشهوة ، وكمخالفة لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال للذة النظر إلى ما دونه فى الجمال !

فنعود ونقول : اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلذة الحواس الخمس ، وإلى باطنة كلذة الرياسة والغلبة والكرامة والعلم وغيرها ، إذ ليست هذه اللذة للعين ولا للأنف ولا للأذن ولا للمس ولا للذوق . والمعانى الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة .

وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعا ، فإنه لا محالة يؤثر التبتل والفكر والذكر وينغمس فى بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين يرؤسهم لعلمه بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته ، وكونه مشوبا بالكدورات التى لا يتصور الخلو عنها ، وكونه مقطوعا بالموت الذى لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها — فيستعظم بالإضافة إليها لذة معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ، فإنها خالية من المزاحمات والمكدرات ، متسعة للتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها ، وإنما عرضها من حيث التقدير للسموات والأرض وإذا خرج النظر عن القدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها ، فى جنة عرضها السموات والأرض يرتع فى رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها ؛ إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ، ثم هى أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ، ومحلها الروح الذى هو أمر ربانى سماوى . وإنما الموت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخليها عن جنسها ، فأما أن يعدمها فلا ! .. « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله

من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم .. الآية ..

ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول فى المعركة . فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد . وفى الخبر أن الشهيد يتمنى فى الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ماراه من ثواب الشهادة ، وأن الشهداء يتمنون لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء . فإذا جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بجسمه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت فى جنة عرضها السموات والأرض ، وكل عارف فله مثلها من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، إلا أنهم يتفاوتون فى سعة منتزهاتهم بقدر تفاوتهم فى اتساع نظرهم وسعة معارفهم . وهم درجات عند الله ولا يدخل فى الحصر تفاوت درجاتهم !

فهذا القدر ينبهك على أن معرفة الله سبحانه ألذ الأشياء ، وأنه لا لذة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الدارانى : إن لله عباداً ليتس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ؟ ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخى له : أخبرنى يا أبا محفوظ : أى شىء هاجك إلى العبادة والانقطاع عن الخلق ؟ فسكت وقال : ذكر الموت ! فقال : وأى شىء الموت ؟ فقال : ذكر القبر والبرزخ ! فقال : وأى شىء القبر ؟ فقال : خوف النار ورجاء الجنة . فقال : وأى شىء هذا ! إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا !

وفى أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتى مشغولا بطلب الرب تعالى ، فقد ألهاه ذلك عما سواه !

ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحارث فى النوم فقال : ما فعل أبو نصر التمار وعبدالوهاب الوراق ؟ فقال : تركتهما الساعة بين يدى الله تعالى يأكلان ويشربان قلت : فأنت ؟ قال : علم الله قلة رغبتى فى الأكل والشرب فأعطانى النظر إليه !

وعن على بن الموفق قال . رأيت فى النوم كأنى أدخلت الجنة فرأيت رجلا قاعداً على مائدة وملكان عن يمينه وشماله ، يلقمانه من جميع الطيبات وهو يأكل ورأيت رجلا قائماً على باب الجنة يتصفح وجوه الناس ، فيدخل بعضا ويرد

بعضها . قال : ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس ، فرأيت فى سرادق العرش رجلا قد شخص ببصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف ، فقلت لرضوان : من هذا ؟ فقال : معروف الكرخى ! عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له ، فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة ! وذكر أن الآخرين بشر بن الحارث وأحمد ابن حنبل

ولذلك قال أبو سليمان : من كان اليوم مشغولا بنفسه فهو غداً مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه . فهو غداً مشغول بربه . وقال الثورى لرابعة : ما حقيقة إيمانك ؟ قالت . ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته ، فأكون كالأجير السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه . وقالت فى معنى المحبة نظما :

أحبك حبين : حب الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عن سواكا
وأما الذى أنت أهـــل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمـــد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا !

ولعلها أرادت بحب الهوى ، حب الله لإحسانه إليها ، وإنعامه عليها بحظوظ العاجلة ؛ وبحبها لما هو أهل له الحب ، لجماله وجلاله الذى انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما .

ولذة مطالعة جمال الربوبية ، هى التى عبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال حاكيا عن ربه تعالى : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقد تتعجل بعض هذه اللذات فى الدنيا لمن انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ، ولذلك قال بعضهم : إنى أقول يارب يا الله ، فأجد ذلك على قلبى أثقل من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب : وهل رأيت جليسا ينادى جليسه ؟ وقال : إذا بلغ الرجل فى هذا العلم الغاية ، رماه الخلق بالحجارة ، أى يخرج كلامه عن عقولهم فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً . فقصد العارفين كلهم وصله ولقاؤه فقط ، فهى قرة العين التى لا تعلم نفس ما أخفى لهم منها . وإذا حصلت انمحت الهموم والشهوات كلها ، وصار القلب مستغرقا بنعيمها ؛ فلو ألقى فى النار لم يحس بها

لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة ، لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التى ليس فوقها غاية !

وليت شعرى من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بلذة النظر إلى وجه الله تعالى ، وما له صورة ولا شكل ؟ وأى معنى لما وعد الله تعالى به عباده وذكره أنه أعظم النعم ؟ بل من عرف الله عرف أن اللذات المفرقة بالشهوات المختلفة ، كلها تنطوى تحت هذه اللذة ، كما قال بعضهم :

كانت لقلبي أهـــواء مفرقة ... فاستجمعت مذ رأتك العين أهوائى
فصار يحسدنى من كنت أحسده ... وكنت مولى الورى ، مذ صرت مولائى
تركت للناس دنيـــاهم ودينهم ... شغلا بذكرك ، يادينى ودنيائى !

ولذلك قال بعضهم :

وهجـــره أعظـــم من ناره ... ووصـــله أطيب من جنته !

وما أرادوا بهذا إلا إيثار لذة القلب فى معرفة الله تعالى عن لذة الأكل والشرب والنكاح ، فإن الجنة معدن تمتع الحواس ، فأما القلب فلذته فى لقاء الله !

التكافل الاجتماعى

روى أنس عن أبيه قال : قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

فضل جاهك تعود به على أخيك الذى لا جاه له صدقة منك على أخيك

وفضل لسانك تعبر به عن لسان أخيك الذى لا لسان له صدقة منك عليه .

وفضل قوتك تعود بها على أخيك الذى لا قوة له ، صدقة منك عليه

وفضل علمك تعود به على أخيك الذى لا علم له ، صدقة منك عليه .

وإماطتك الأذى عن الطريق صدقة منك على أهله .